

دلائل الإعجاز

(حُجَجٌ تُخْرِسُ الْأَلَدَّ بِالْفَاطِ ... فُرَادَى كَالْجَوْهَرِ الْمَعْدُودِ) .
(وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي ... هَجَجَتْ نَدَى شِعْرٍ جَرَوَلٍ وَلَبِيدِ) .
(حُزْنٌ مُسْتَعْمَلٌ الْكَلَامِ اخْتِيَاراً ... وَتَجَدَّيْنِ طُلُمَّةَ التَّعْقِيدِ) .
(وَرَكِبْنِ اللَّفْظَ الْقَرِيبَ فَأَدْرَكْنِ ... بِهِ غَايَةَ الْمُرَادِ الْبَعِيدِ) .
(كَالْعَدَاوَى غَدَوْنِ فِي الْحُلَالِ الصُّفْرِ ... إِذَا رُحْنٌ فِي الْخُطُوطِ السُّودِ) .
الغرضُ من كَتَبِ هذه الأبيات الاستظهارُ حتى إِنَّ حَمَلٌ حَامِلٌ نَفْسَهُ عَلَى الْغَرَرِ
وَالْتَقَدُّمُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ فزعم أنَّ الإِعْجَازَ فِي مَذَاقَةِ الْحُرُوفِ وَفِي سَلَامَتِهَا مِمَّا
يَثْقُلُ عَلَى اللِّسَانِ عِلْمٌ بِالنَّظَرِ فِيهَا فَسَادَ طَنِّهِ وَقُبُحَ غَلَطِهِ مِنْ حَيْثُ يَرَى عَيَاناً
أَنْ لَيْسَ كَلَامُهُمْ كَلَامَ مَنْ خَطَرَ ذَلِكَ مِنْهُ بَبَالٍ وَلَا صِفَاتُهُمْ صِفَاتٍ تَصْلَحُ لَهُ عَلَى حَالٍ إِذْ لَا
يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ أَنْ لَمْ يَكُنْ ضَرْبُ " تَمِيمٍ " لِحُزُونِ جِبَالِ الشَّعْرِ لِأَنَّ تَسْلِمَ الْفَاطِ مِنْ
حُرُوفٍ تَثْقُلُ عَلَى اللِّسَانِ وَلَا كَانَ تَقْوِيمُ " عَدِيٍّ " لَشَعْرِهِ وَلَا تَشْبِيهُهُ نَظَرَهُ فِيهِ بِنَظَرِ
الْمُثَقِّفِ فِي كُتُوبِ قَنَاتِهِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ جَعْلُ " بَشَارٍ " نَوْرَ الْعَيْنِ قَدْ
غَاضَ فَصَارَ إِلَى قَبْلِهِ وَأَنْ يَكُونَ اللَّوْلُوُّ الَّذِي كَانَ لَا يَنَامُ عَنْ طَلَبِهِ وَأَنْ لَيْسَ هُوَ صَوْبَ
الْعُقُولِ الَّذِي إِذَا " انْجَلَّتْ سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابٍ " وَأَنْ لَيْسَ هُوَ " الدَّرُّ " وَ
وَالْمَرْجَانُ " مُؤَلَفًا بِالشَّذَرِ فِي الْعَقْدِ وَلَا الَّذِي لَهُ كَانَ " الْبَحْتَرِيُّ " مُقَدَّرًا تَقْدِيرَ
دَاوُدَ فِي السَّيِّدِ .

كَيْفَ وَهَذِهِ كَلَامُهَا عِبَارَاتٌ عَمَّا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ وَيُسْتَنْبَطُ بِالْفِكْرِ وَلَيْسَ الْفِكْرُ الطَّرِيقُ
إِلَى تَمْيِيزِ مَا يَثْقُلُ عَلَى اللِّسَانِ مِمَّا لَا يَثْقُلُ إِلَّا زَمَّ الطَّرِيقُ إِلَى ذَلِكَ الْحَسِّ .
وَلَوْلَا أَنْ الْبَلَوَى قَدْ عَظُمَتْ بِهِذَا الرَّأْيِ الْفَاسِدِ وَأَنَّ الَّذِينَ قَدْ اسْتَهْلَكُوا فِيهِ قَدْ صَارُوا مِنْ
فَرَطٍ شَغَفَهُمْ بِهِ يُصْغُونَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ يَسْمَعُونَهُ . حَتَّى لَوْ أَنَّ إِنْ سَانَاً قَالَ :
" بَاقِلَى حَارٍ " يَرِيهِمْ أَنَّهُ يَرِيدُ نَصْرَةَ مَذْهَبِهِمْ لِأَقْبَلُوا بِأَوْجَهُمْ عَلَيْهِ فَأَلْقَوْا أَسْمَاءَهُمْ
إِلَيْهِ لَكَانَ أَطْرَاحُهُ وَتَرَكُ الْإِشْتَغَالُ بِهِ أَصُوبَ لَأَنَّهُ قَوْلٌ لَا يَتَصَلُّ مِنْهُ جَانِبٌ
بِالصَّوَابِ الْبِتَّةِ .

ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ شَيْءٍ يُوْدِي إِلَى أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مُعْجَزًا لَا بِمَا بِهِ كَانَ قُرْآنًا وَكَلَامًا